الوسائل الجالبة بإذن الله تعالى للتسليم والقلب السليم

إن أعظم منة يمن الله ﷻ بها على من يشاء من عباده منة استقرار الإيمان واليقين والتسليم لله ﷻ في القلب، حتى يكون القلب سليمًا ممتلأ بما يحبه الله ﷻ ويرضاه. وصاحب هذا القلب هو صاحب النفس المطمئنة، التي تأتي ربها راضية مرضية، تنعم برضوان الله تعالى وجنته، نسأل الله ﷻ أن يمن علينا بفضله ورحمته بالقلب السليم والنفس المطمئنة.

وفي هذاالفصل سأذكر - بإذن الله تعالى- بعض الأسباب المعينة على تحلي العبد بالقلب السليم واستقرار التسليم لله ﷻ في قلبه، أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإخواني المسلمين بها.

• **أولًا: دعاء الله ﷻ واللجوء إليه والتضرع بين يديه وسؤاله القلب السليم..**

وهذا السبب هو أعظم الأسباب ومفتاحها، لأن القلوب بيد الله ﷻ وهو سبحانه العليم الحكيم الهادي النصير الرحيم الودود، يوفق من يشاء بفضله ورحمته، ويخذل من يشاء بعدله وحكمته. وما

دام التوفيق والتسديد والهداية بيده سبحانه ولا يملكها غيره فلا جرم كان سؤال ذلك ممن يملكها وحده هو المتعين. والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء من دعاه بصدق ويقين وإرادة ورغبة ورهبة. ولذلك كثر في دعائه عليه الصلاة والسلام طلب صلاح القلب وسلامته وثباته على الحق واليقين، ومن ذلك:

قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم**»(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: «**اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول به بيني وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغني به جنتك، ومن اليقين ما تهون به عليَّ مصائب الدنيا**»(٢).

ومن الأدعية التي فيها سؤال الله ﷻ التسليم والإسلام لله ﷻ، ما ذكره الله ﷻ في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ

(١) النسائي (١٣٠٤) ترقيم أبي غدة. وقد سبق تخريج الحديث.
(٢) الترمذي (٣٥٠٢) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣) والمعجم الكبير للطبراني (٧١٣٥).

عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٨]، إلى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ١٣١].

والمقصود أن الدعاء والإلحاح على الله ﷻ بطلب القلب السليم لمن أنفع الأسباب وأنجعها إذا صاحب ذلك صدق الطلب وصحة العزيمة.

• **ثانيًا: التفكر في عظمة خلق الله ﷻ في الآفاق وفي الأنفس، التي تدل على عظمة الخالق ﷻ**

يقول الله ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[فصلت: ٥٣].

إن التأمل في عظمة هذا الكون الذي خلقه الله ﷻ، وفي خلق الإنسان العجيب، وما في ذلك من الدقة والنظام والقوة والقهر والحكمة واللطف والرحمة، ليدل ذلك على عظمة الله ﷻ وسعة علمه وحكمته ولطفه ورحمته وقوته وقدرته، وهذا كله يقود إلى امتلاء القلب من تعظيم الله ﷻ ومحبته وإجلاله والخوف منه والتوكل عليه وحده. وإذا امتلأ القلب بهذه الأعمال القلبية الشريفة تمكن التسليم التام لله ﷻ من القلب، وفاز العبد بالقلب السليم المخبت لله ﷻ. وهذا ما أثنى به الله ﷻ على أصفيائه من خلقه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

«والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكررًا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح؛ الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتتبدى في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي تصميم هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان. وأولو الألباب؛ أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات. ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود»[1].

وهذا ما انتهى إليه إبراهيم عليه السلام بعد نظره في ملكوت السموات والأرض، حيث أعلن لقومه ما ذكره الله عز وجل في كتابه عنه بقوله:

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٤٤.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٨ - ٧٩].

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نَستشفع بك على الله، ونَستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ «**ويحك! أتدري ما تقول**» وسبح رسول الله ﷺ، فما زال يُسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال «**ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك. ويحك! أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهكذا**». وقال بأصابعه مثل القبة عليه «**وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**»[1].

• **ثالثًا: التفكر والنظر في آلاء الله ﷻ ونعمه التي لا تحصى**

قال الله ﷻ في سورة النعم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النحل: ١٨].

وقال في وسط السورة بعد أن عدد أنواعًا أخرى من نعمه سبحانه على الإنسان في خلقته ومطعمه ومشربه ومسكنه وملبسه:

(١) أبو داود (٤٧٢٨) وسبق تخريجه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠ - ٨١].

فذكر الله ﷻ في ختام هذه الآية أن من أسباب إسلام العباد لله ﷻ والتسليم له إتمام نعمة الله ﷻ على عباده وإسباغه عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]. لذا فإن التفكر والتأمل في نعم الله ﷻ علينا التي لا تحصى لمن أسباب تحقق التسليم في القلوب له سبحانه والإخبات والإذعان له، وهذا كله من ثمرة محبة المنعم ﷻ، حيث إنه لا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله ﷻ، فينبغي أن يكون له الحب كله، وله التعظيم كله، وله التسليم كله، يقول الشيخ الشعراوي عن آية النحل السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: أي تُلقون زمام الاستسلام إلى الله..، وأنت لا تلقي زمامك إلا لمن تثق فيه.. والإنسان قد يلقي

زمامه في أمر لا يُجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر، فإذا كنت في حاجات نفسك تلقي زمامك لمن هو مثلك، ويساويك في قلة المعلومات، ويساويك في قلة الحكمة، ومع ذلك تسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئًا لا تجيده أنت، أفلا تلقي زمامك وتسلم أمرك إلى ربك وخالقك، وخالق كل هذه النعم من أجلك. إذن: جاء ذكر هذه النعم، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه، حتى نسلم عن يقين واقتناع، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة في طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، إن أطعناه فلن نزيد في ملكه سبحانه، وإن عصيناه فلن ننقص من ملكه سبحانه.

إذن: تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن.. فالإنسان حينما يسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تلوي رأيه في المسألة، إنما ربنا سبحانه حينما يوجه إلينا حكمًا فليس له مصلحة فيه فلا يُلوَى، لا يكون إلا لصالحك، وبعد أن عدد هذه النعم في الذات والمحيطات وفي الإنسان وفي الانطباعات، قال : إياك بعد ذلك أن تسلم زمامك لغيري .. لذلك نقول: لا عبادة كالتسليم، لأن التسليم لحكمه تسليم لحكيم) [1].

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٤٩٩٦ (باختصار).

• **رابعًا: الفقه في أسماء الله الحسنى وآثارها والتعبد له سبحانه بها**

إن الفقه في أسماء الله الحسنى وفهم معانيها والتعبد لله سبحانه بها، لتثمر في قلب العبد ثمرات وعبوديات عظيمة، ينعم بها في الدنيا والآخرة، أعظمها عبودية التسليم والرضى والإخبات والانقياد والخوف والرجاء، وتفويض الأمور إليه سبحانه والتوكل عليه وحده.

يقول العز ابن عبدالسلام رحمه الله تعالى: «فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات»[1].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «فإن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلا، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سرورًا ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى، تعرف به إليه على لسان رسوله، فأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحه، وعظم بها غناؤه، وقويت بها

(١) شجرة المعارف ص١.

معرفته، واطمأنت إليه نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسام عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيءأعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنْزِلُ العبد من نفسه حيث يُنْزِلُه العبدُ من نفسه»[1].

فالعالم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته الحسنى يستدل بها علم من صفاته وأفعاله سبحانه على ما يفعله ويخبر به ويشرعه من الأحكام، لأنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته. وأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة، ولا يشرع ما يشرعه من الأحكام أو يقضيه من الأقضية إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة ورحمة، وكل هذه المعارف تثمر في قلب العبد التسليم والرضا والحب لله ﷻ والخضوع له، وكم لهذه الآثار من سلامة للقلوب والأخلاق.

(١) شرح قصيدة ابن القيم الشافية الكافية ١/ ٢٤.

وكم في الجهل بها أو تعطيلها من آفات وأمراض للقلوب والأخلاق. يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وما له بعد الوصول إليه»[1].

• **خامسًا: تدبر كتاب الله ﷻ والوقوف مع مواعظه**

يقول الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والمتدبر لكتاب الله ﷻ يجد فيه كل ما يحيي القلوب ويزيد الإيمان واليقين والتسليم لله ﷻ، ففيه الحديث عن آيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس الدالة على تعظيم الله ﷻ وقدرته وحكمته ورحمته. وفيه الحديث عن أسماء الله ﷻ الحسنى، وما تقتضيه من الخلق والأمر، وفيه الحديث عن آلاء الله ﷻ ونعمه، التي لا تحصى، وما يثمر ذلك من حمد الله ﷻ والثناء عليه والتسليم له. وفيه الحديث عن حقيقة الدنيا،

(١) هداية الحيارى ص ٥٩١.

والآخرة والحث على الزهد في الدنيا التي هي سبب قسوة القلوب وعدم انتفاعها بالمواعظ والزواجر والوعد والوعيد. وفيه الحديث عن كثير من أحكام الله الشرعية الكاملة الشاملة التي كلها خير ومصلحة.

وفيه قصص أنبيائه ورسله وأوليائه، وما تضمنته من التسليم الكامل من هؤلاء المصطفين لربهم ولأحكامه، كما قص علينا سبحانه جانبًا من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام واستلامه لربه، وتقديم نفسه في سبيل الله عز وجل للنيران وولده للقربان.

وفيه من الحكم الباهرة في أخباره وأحكامه، وذلك كله يقود إلى مزيد من التسليم والإذعان والفرح بهداية الله عز وجل لهذا الدين وكتابه العزيز، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

وعن تدبر القرآن ومجاري التفكر فيه وما يثمره في القلوب، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومجاري هذه الفكرة تدبر كلامه، وما تعرف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عباده، وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها

على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر إلى آثار أفعاله»[1]..

• **سادسًا: العلم بالشرع والبصيرة في الدين**

يقول الله ﷻ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: ١٠٨]، ويقول عن أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[ص: ٤٥]. ويقول سبحانه عن إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[مريم: ٤٣]، والآيات والأحاديث التي تبين أثر العلم في تبصرة القلب واستنارته واستسلامه لربه كثيرة في كتاب الله ﷻ، وفي سنة نبينا محمد ﷺ، ذلك أن العالم بربه سبحانه وبأسمائه وصفاته وأحكامه وأوامره، وما فيها من الحكم الباهرة والمصالح العظيمة، يكون في الغالب محبتًا لربه، منقادًا خاضعًا مستسلمًا له، ولأوامره وأحكامه سبحانه، أكثر من غيره ممن قلت بصيرته بربه

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٥، دار الكتب العلمية.

سبحانه وبدينه، حيث يكون إسلامه لربه ضعيفًا، كما أن تأثير الشبهات والشهوات على قلبه يكون كبيرًا لقلة علمه وبصيرته، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]. فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله سبحانه ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾[ص: ٤٥]، فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله. والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنه، أولي القوة في طاعة الله والمعرفة بالله .. وقال مجاهد: الأيدي: القوة في طاعة الله . والأبصار: البصر في الحق. وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[1]. فبكمال

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ٢/ ٤٧٠ وقال: تفرد به عمر بن حفص، وورد في مسند الشهاب ٢/ ١٥٢ تحقيق حمدي السلفي. مؤسسة الرسالة.

العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان»[1].

والحديث عن هذا السبب من أسباب استجلاب التسليم يقودنا إلى السبب السابع، وهو :

- **سابعًا: مصاحبة أهل الإيمان واليقين والقراءة في سيرهم ومجانبة أهل الشبهات ومجالسهم وكتبهم، ومواقعهم**

يقول الله ﷻ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ويبين الرسول ﷺ أثر الجليس على مجالسه، فيقول: «**إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن يبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة،**

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٧، دار المعرفة، تحقيق: محمد حامد الفقي.

ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة» [1]، وقال أيضًا: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[2].

وفي ضوء هذه الآيات والأحاديث يظهر لنا أثر الجليس من شخص أو كتاب على من يجالسه، ولذلك رأينا في منهج السلف الصالح تحذيرهم من مجالسة أهل الشبهات والأهواء والبدع، أو النظر في كتبهم التي يغلب عليها الشبهات وكثرة الاعتراضات والتأويلات للنصوص المحكمة، وهذا ينعكس على قارئه في قلبه من ضعف في التسليم واليقين، وشعور صاحبه بالحيرة والاضطراب. بينما لا يكون ذلك في مجالس أهل الإيمان والتسليم من الراسخين في العلم، وإنما يشعر الجالس في مجالسهم والقارئ لكتبهم وسيرهم بزيادة في التسليم والإيمان واليقين والانقياد. ولو أمعنا النظر في التحولات والتغيرات التي طرأت وتطرأ على بعض الدعاة والمفكرين قد يصل بعضها إلى الإلحاد والاعتراض على أفعال الله ﷻ وأحكامه لرأينا أن أسباب كثيرة منها يعود إلى سماع أقوال أهل الشبهات أو القراءة في كتبهم، والدخول إلى مواقعهم.

يقول الأستاذ عبدالله السعوي في مقاله: (الغرور العقلي.. والانتكاس الفكري):

---

(١) البخاري (٥٥٣٤)، مسلم (٢٦٢٨).

(٢) الترمذي (٢٣٧٩) وقال: حديث حسن.

«لـو ألقينـا نظرة تأمُّليـة تبحث عـن العوامل الفعّالـة التي تقف خلـف كثير من التحولات الفكرية الحـادة عند بعض النماذج، والتي تنتقل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار على نحو يستعصي معه الفهم والتحليـل؛ لألفينا أنها لم تنبثق من فراغ بقدر ما هي أثر حتميّ أفرزته بواعث متنوعة، بينها تسلسل سببي، وروابط عليّة متبادلة ومتفاعلة، أسـجّل باعثـين هنا منها على سـبيل الإجمـال، مقتصدًا جهـد الطاقة، حتى لا أثقل على ذاكرة القارئ الكريم:

أولًا: القـراءة المكثفـة في كتـب أهـل الأهـواء مـع ضآلـة العلم الشرعي في منحاه العقدي خاصة:

إن الفضـول المعـرفي بطبيعتـه يدفع إلى مزيـد من النّهـم القرائي اللامنضبـط ـ أحيانًـا ـ مما يدفع بالفرد إلى قـراءة كل ما يقع في متناول يديـه من أطروحات فكريـة قراءةً غير موجهة بحكم عدم اسـتنادها إلى قـدرات علمية عليا، ولذا فهي تولد الاتجاه السـلبي أكثر مما تعزّز التوجه السـلفي كإفراز حتميّ ناشـئ عن ضمور مكتسـبه المعرفي في جانبه العقدي على وجه الخصوص.

إن إثارة الشـبهات والتشكيك في العقائد والإطاحة بالتصورات الإيجابيـة، هـو الهدف المحـوري الـذي تتغيّـاه كتب ومقـالات أهل

الأهواء، الشأن الذي جعل رسول الله ﷺ يتمعّر وجهه عندما شاهد صحيفة من صحف أهل الكتاب مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الفاروق المبشَّر بالجنة، ونهاه عن قراءتها.

ولقد كان سلفنا الأفاضل يحرِّمون علم الكلام، ويشدّدون في عدم السماع من أهل الأهواء أو النظر في مؤلفاتهم، حتى ولو احتوت على شيء من الحق؛ لأن هذه الأطروحات تورّث شُبهًا تضلّل المتلقِّي وتستهويه وتؤثِّر على قناعاته...

إن القارئ المتسطح الذي يعاني من الهزال في بنيته المعرفية يتعسّر عليه ـ إن لم يتعذّر ـ أن يقرأ بروح تمحيصية ناقدة، فهو لا يملك القدرة على سبر أغوار الروح العامة، وتفكيك البنية الشاملة التي ينهض عليها هذا الخطاب، ولذا يقع فريسة سهلة للأفكار السالبة بكافة ضروبها، ويسيطر عليه ما يشبه عمى الألوان، فيتجاوب مع المادة المطروحة، ويتذوّقها، وتنطبع لديه في أعماق الضمير...

إن الإلمام بالعلم الشرعي والتشبّع بالفقه العقدي وفق منهج سلفي مطلبٌ جوهري في غاية الأهمية والإلحاح، مطلبٌ يمنح صاحبه حصانة فكرية، ويزوِّده بمناعة نفسية، ويورِّثه عزّةً وقناعة تامة بصوابية توجّهه، ويمدّه بحيوية ذهنية وقدرة فذّة على القراءة النقدية، التي تضعه أمام الحقيقة الموضوعية لهذه الأفكار الوضعية، التي تغذِّي أخيلة مستهلكيها بالمفاهيم الكاسدة والمتشابكة مع أسسنا الفكرية لسلمنا القيمي المستوحى من نصوص الوحيين...

ثانيًا: المبالغة في إيراد الأسئلة والاستفهامات على العقل وتحميله ما لا يحتمل بجعله الإطار المرجعي الأول بعيدًا عن النص:

... إن ثقافة التساؤل من حيث المبدأ هي ثقافة ينبغي تفعيلها وإشاعتها، ولكن ثمَّة ملحظ يجب استحضاره في هذا السياق، مؤدّاه أن الأسئلة تتباين باعتبار طبيعتها الماهية، فثمَّة أسئلة لها عوائد إيجابية، وثمَّة استفهامات لها مردودها المكتظّ بالسلبية، كما هو الحال في الاستفسارات ذات النزعة الفلسفية المتمحورة حول ذات الخالق ﷻ وأسمائه وصفاته وأفعاله.

إن ثمَّة أمورًا يجب أن يقف عندها العقل موقف التسليم والخضوع، أُشير إلى جزء منها على نحو مجمل كما يلي:

- **أولًا**: القدر، فهو سرّ الله في خلقه، والرب ـ تبارك وتعالى ـ يعلم الأصلح للخلق، الذين لم يتعبَّدوا بالبحث عنه، وإنما تعبَّدوا بالرضى الوجداني، والتسليم المطلق، والامتثال اللامشروط، ولقد كان سلفنا الأوائل نموذجًا مثاليًّا يجدر الاحتذاء به في هذا الشأن، وكانت مواقفهم حازمة إزاء من يتمادى في إثارة الأسئلة والإشكالات في القدر

- **ثانيًا**: الغيبيات عمومًا، سواء منها ما يتعلق بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله بكيفياتها، أو ما يتعلق بأخبار الغيب الأخرى كأحوال

الآخـرة أو عالم الشـهادة الذي ليـس بمقدور مداركنـا تناوله، فهذا كله يجب الكف عنه، وتجنّب البحث في تفاصيله.

- **ثالثًـا**: بعض حِكَم التشريـع؛ لأن حِكَم التشريـع متباينة، فثمَّة جملـة منهـا قد يُدرك مـن قِبَل عامـة الناس، وجـزء آخر قد لا يدركـه إلا العلـماء، وهنـاك جزء يختـص الخالق ـ جـلَّ وعلا ـ بمعرفته، وهو سرٌّ من أسراره الخفية المغيبة عن البشر.

إن الإفـراط في طـرح المزيد من التسـاؤلات سـلوك لـه إفرازاته السـلبية؛ لأن للسـؤال قدرة هائلة على التشـعب والتكاثر والسـير في كل اتجاه، فالسـؤال السـابق يفضي إلى السـؤال اللاحق، الذي بدوره يستدعي إجابة تكتظ بمواطن الأسـئلة اللامتناهية، وهكذا تتواصل الأسـئلة على نحو توالدي، يعيي العقل ويرفعه إلى مشـارف الهاوية، فتتنازعه مشاعر متناقضة، تعصف به وتحيطه بدائرة من الكآبة المقلقة والتوترات النفسية المرشحة للتفاقم والاستفحال[1].

• **ثامنًا: النظر في آثار التسليم لله ﷻ وثمارها الطيبة في الدنيا والآخرة.**

سـبق في الفصل السـابق ذكر بعض الثمار اليانعة لسـلامة القلب وتسـليمه، التي كان من أبرزها الحياة الطيبة الهنيئة في الدنيا والآخرة،

(١) انظر المقال في مجلة البيان العدد (٢٢٩) مع الاختصار الشديد.

والسلامة من القلق والاكتئاب والحيرة والاضطراب والرضى بقدر الله ﷻ، والسلامة مما يكون عند كثير من الناس من الحسد والأحقاد والتقاطع والتدابر ومن هذه الثمرات الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة بالأعمال الصالحة، وإن التمعن في هذه الثمار لمن أقوى الوسائل التي تدفع المسلم إلى بذل ما في وسعه من الجهد والأخذ بالأسباب السابقة وغيرها، للحصول على هذه الثمار الطيبة والأرباح المباركة، نسأله سبحانه أن يمن علينا بالقلوب السليمة المطمئنة، وأن يمن علينا بتهيئة الأسباب الموصلة إلى ذلك، إنه سميع مجيب منان وهاب واسع عليم.

openkandl.com

الحمد لله الـذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وهدايته يهتدي المهتـدون، يهب برحمتـه وفضله وعلمـه وحكمته القلب السـليم لمن يشاء من عباده، ويحرمه من يشاء من عباده بعدله وحكمته، وبعد:

أود في هذه الخاتمة أن أقف مع أهم ما ورد في هذا الكتاب، وذلك حسب الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

ذكـر مـا تضمنتـه المقدمـة مـن بعـض الدوافـع التـي تبـين منها أهميـة الكتابـة في موضوع التسـليم لله ﷻ والإسـلام له، ولا سـيما في واقعنـا المعاصر الذي كثرت فيه الشـبهات والشـهوات، وكثرت فيه الاعتراضات على دين الله ﷻ، وانتشر الجهل بحقيقة الإسلام، وأظهر فيه المنافقون قرونهم، وتجرؤوا على شريعة الله ﷻ وحملتها بالاستهزاء والطعـن والإقصـاء، وما حصل عنـد ضعاف الإيمان من الاسـتهانة بنصوص الوحيين، وضعف تعظيمهما في النفوس.

الوقفة الثانية:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الأول من الآيات من كتاب الله ﷻ، التي ورد فيها ذكر الإسلام والقلب السليم، والتسليم، والمسلمون، وذلك بسرد هـذه الآيات سردًا مجـردًا دون تعليق، إلا في آيتين منها هما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، حيث ذكرت أقـوال بعـض المفسرين في هاتـين الآيتين، وقـد بينت هذه الأقـوال حقيقة التسـليم، وصفات القلب السـليم، وأركان التسليم لله ﷻ، كما تضمن هذا الفصل ذكر بعض الأحاديث والآثار عن التسليم وأهله.

الوقفة الثالثة:

وفيها ما تضمنه الفصل الثاني من بيان معنى الإسلام والاستسلام لله ﷻ، وبيـان أن الإسـلام هو دين الرسـل جميعًا، دعـوا إليه، وبلغوه أقوامهم.

الوقفة الرابعة:

وفيهـا ذكـر ما تضمنـه الفصل الثالـث من بيان مفصـل لأركان التسـليم لله ﷻ، التي لا يتم التسليم إلا بها، ولا يستحق العبد وصف القلب السليم إلا بها، وهي في الجملة:

- تسليم القلب لأخبار الله ﷻ بالتصديق واليقين، فلا يعترض عليها بشبهة من عقل أو رأي.
- وتسليم القلب لأحكام الله ﷻ بالقبول والإذعان، فلا يعترض عليها بشهوة أو شبهة.
- وتسليم القصد والإرادة لله ﷻ، فيسلم القلب من أي إرادة تعارض الإخلاص لله ﷻ .
- وتسليم القلب لقضاء الله ﷻ وقدره، حيث يتلقاه بالرضى والطمأنينة. ولا يؤثر على ذلك مدافعة أقدار الله ﷻ بأقداره سبحانه، وذلك فيما يمكن مدافعته منها. وقد تضمن هذا الفصل مناقشة ورد شبهات أهل الزيغ في اعتراضهم على دين الله ﷻ بعقولهم وأهوائهم الفاسدة.

الوقفة الخامسة:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الرابع من بعض الثمار والآثار الطيبة، التي يثمرها التسليم لله ﷻ في قلب العبد المؤمن وأحواله وواقعه، وكان من أهمها: الإخلاص لله ﷻ والرضا بقضائه، والحياة الطيبة السعيدة التي يحصل عليها العبد المستسلم لربه ﷻ في حياته الدنيا وفي الآخرة، وتلذذه بعبادة ربه وسلامته بذلك، مما يعتري أصحاب القلوب المريضة وأهل الاعتراضات من الحسد والحيرة والتسخط،

والاضطراب والقلق والاكتئاب.. وهذا يثمر الاغتباط والسرور بدين الله ﷻ في قلب المسلم، ومنها النشاط للدعوة لدين الله ﷻ، والجهاد في سبيله، والتضحية في سبيل ذلك بالأموال والأنفس، ومنها ما يسود المجتمع المستسلم لشرع الله ﷻ من الأمن والسلام والوئام، ومنها سلامة الموازين وانضباطها، فلا تضطرب أو تتناقض، كما هو الحال في موازين البشر الجاهلة الظالمة، كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ومنها كثرة ذكر الله ﷻ والتضرع إليه وتفويض الأمور إليه، ومنها الزهد في الدنيا وأنها متاع زائل، وأن ما عند الله خير وأبقى، ومنها الانقياد للحق والتسليم له إذا بان دليله.

الوقفة السادسة:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الخامس من بعض الوسائل التي تستجلب بها سلامة القلب وصحة إسلامه لله ﷻ، وكان من أهمها: دعاء الله ﷻ وسؤاله سبحانه بصدق سلامة القلب، ومنها: العيش مع الصالحين أصحاب القلوب السليمة وقراءة سيرهم وكتبهم واجتناب مجالس المبطلين وأهل الزيغ والشبهات واجتناب كتبهم ومواقعهم.

ومنها: الفقه في أسماء الله ﷻ والتعبد لله سبحانه بها. ومنها النظر في آيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس، التي تدل على عظمة الله ﷻ وقدرته

وحكمتـه ورحمته. ومنها النظـر في آلاء الله ﷻ ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، ومنها تدبر القرآن وما يتضمنه من الوسائل السابقة وذكر سـير المسـلمين لله حقًّا مـن أنبيائـه وأوليائـه، ومنها العلـم بالشريعة والبصـيرة في الدين، التي توقف المتأمل فيها على عظمة هذه الشريعة وكمالها وحسنها وحكمة منزلها.

وفي ختـام هذه الخاتمة أوجه هذه النصيحة لكل من ظلم نفسـه، وتجرأ على نصوص الوحيين بالاعتراض والتحريف وعدم التسـليم، لأقـول لـه ما قاله نوح عليه السـلام لقومه عندمـا عارضوه وكذبوه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وأقـول لهـم، مـا قالـه الرسـول ﷺ لذلـك الأعرابي الذي سـأله أن يستسـقي لهم فقال: إنا نَستشـفع بك عـلى الله ونَستشـفع بالله عليك. قال رسـول الله ﷺ «**ويحـك! أتدري مـا تقول**» وسـبح رسـول الله ﷺ فما زال يُسـبح حتى عُـرف ذلك في وجـوه أصحابـه، ثم قال: «**ويحك! إنه لا يُستشـفع بـالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟! إن عرشه على سمواته لهكذا**».

فيـا قوم: اتقـوا الله ﷻ ولا تظلموا أنفسـكم، فإنكـم لا تضرون الله ﷻ ولا تـضرون إلا إنفسـكم، أتـدرون مـا الله، ومـا هـي صفاته

وعظمته، كيف تطاوعكم أنفسكم أن تتعاملوا مع نصوص الوحيين كما تتعاملون مع كلام البشر، ويحكم أتدرون على من تعترضون؟! إنكم لتعترضون على فاطر السموات والأرض، القاهر فوق عباده ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]. ويحكم كيف تعترضون على خالقكم ورازقكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]. ويحكم توبوا إلى الله ﷻ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، ولا تغتروا بإمهال الله لكم وحلمه عنكم، فإن الله ﷻ يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

قال الله ﷻ: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، وقال سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

هذه نصيحتي إليكم إن كنتم تحبون الناصحين.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين
في يوم الخميس ٥/ ١١/ ١٤٣٦هـ